

أنا ... وتوفيق الحكيم

وجهاً لوجه ...

للأستاذ دريني خشبة

والمجيب أننا تصالحنا في لحظة خاطفة ... ولم يكن هذا الصلح على حسابي ... بل كان على حساب الأستاذ الحكيم الذي عاهدني وعاهد الأستاذ الزيات ألا يكتب كلمة واحدة ضد المرأة ... ولقد رثيت له ورحمته وهو يوافقنا على ذلك ، لأنه كان بحضرة الأديبة المهدية فلك طرزي ، فلم يكن في مستطاعه أن يدافع في قضيته بشيء .

ثم دار الكلام في موضوعات شتى ، حتى وصلنا إلى آخر كتب توفيق الحكيم ، (زهرة العمر) ، فلم أقطع فيه برأى لأنني لم أكن قرأته ، بل لم أكن شهادته ... وذلك أننا معشر ال ... أدباء (والسلام) نفضل أن نشترى بنقودنا خبزاً لا ولادنا هذه الأيام ... على أن نشترى كتباً لأذهاننا ، لأننا نجيد الاحتيا ل لقراءة هذه الكتب ، حتى تسكت هذه الحرب فنشترىها كما يشترىها الأغنياء والمغطاء ، بل نعود كما كنا أحسن زبائن المكتبات

وكان الأستاذ الحكيم قد أهدى (زهرة العمر) إلى الأستاذ الزيات ولم يكن قرأه بعد ، فوجدت من حسن الاحتيا ل أن أدعي أنني سريع القراءة جداً ، وأبني أستطيع أن أفرغ من الكتاب قبل أن ينتهي الزيات من (تفتيح) صفحاته ... فوافق الرجل ... بشرط ! أن أكتب عن الكتاب وطبعاً عن صاحب الكتاب ! ... كل هذا والأستاذ الحكيم

ذهبت لأسلم على الأستاذ الزيات بعد عودته إلى القاهرة فوجدت إحدى الأدبيات قد سبقتنى إلى هذا الفضل ... وهذا خبر لا يهم القراء في شيء ...

إنما الذي يهم القراء حقاً أنني لم أكد أستقر في مكاني حتى فتح الباب ودخل الأستاذ توفيق الحكيم ... فهل كنا على ميماء ؟

وعند ما كنت أكتب فصولي في « شهرزاد » وأحلام « شهرزاد » أراد الأستاذ الزيات أن يعرفني إلى الأستاذ الحكيم ... فاعتذرت ... وقلت له حين سألتني عن السبب : حتى أفرغ من هذه القضية بين الحكيم وبين طه حسين ... وذلك لكي تصدر فصولي كلها بروح واحد ...

ثم مضت الأيام ، ولم أعرف الأستاذ الحكيم إلا من كتبه ، ولم يعرفني الأستاذ الحكيم إلا من مقالاتي ... حتى كان هذا اللقاء المفاجئ !

وأغار إن هبّ النسيم لأنه مُغرّمي بهزّ قوامك اليّاس و يروعي ساق الدمام إذا بدا فأظن خدك مُشرقاً في الكاس وما ورد « المُطَمِّع المُنْتَبِع » في الشعر العربي بأكثر مما ورد في شعر البهاء . أليس هو الذي يقول :

سيدي قلبي عندهك سيدي أوحشت عبدك سيدي قل لي وحدتي متى تنجز وعدك أترى تذكر عهدى مثل ما أحفظ ودك قم بنا إن شئت عندي أو أكن إن شئت عندهك أنا في داري وحدي فتفضّل أنت وحدك وأشعار البهاء تفيض بالمطارحات الفرامية ، مع خفة الدم ، ولطف الروح ، وأنا أرجو أن يعفيني التسابكون من إيضاح هذه الناحية ، لأنها أوضح من أن تحتاج إلى إيضاح ومن سمع الغناء بغير قلب ولم يطرب فلا يلم المغنّي وقد غنّى البهاء وأجاد ، فاحموه بالقلوب . زكي مبارك

وإني لأهوى كلّ من قيل عاشق

ويزداد في عيني جلالاً وبشرف وما العشق في الإنسان إلا فضيلة

ندمّت من أخلاقه وتلطّف يعظم من يهوى ويطلب قربه فتكثر آداب له ونظرف وهو يرى الموت في العشق حياة ، كأن يقول :

ما له أصبح عني معرضاً

تحت ذا الأعراض من مولاي شيء أنا من قدّمت في العشق به هنتوني : ميت العشق حيّ وغزل البهاء غاية في الرقة والمذوبة واللفظ ، وما أحلاه وهو يصور غيرته على من يهواه :

وأترّه اسلك أن تمرّ حروفه من غيرتي بمسامع الجلاس فأقول بعض الناس عنك كناية

خوف الوشاة وأنت كل الناس

الشعب غير المتعلم ... ومن الأمانة في نقل الحديث أن أذكر ما ذكره الأستاذ توفيق نفسه من أنه إنما يرى هذا الرأي لما لقيته مسرحيته « أهل الكهف » من مصير علي سيد الفرقة القومية وفي دار الأوبرا الملكية ... لقد قالها الأستاذ توفيق في شيء يشبه المرارة ... وهو مخطئ في زعمه هذا ... فأهل الكهف كتبوا لتكون من أروع آيات الأدب المصري الحديث ، وقد أثبتت وجودها بالفعل ، ولسوف تخلد على وجه الزمان قطعة فنية قوية أنشئت للقراءة وللترف الذهني ، ولم تنشأ للتمثيل ... والذين أشاروا بإخراجها للمسرح هم الذين كتبوا لها هذا المصير . وبهذه المناسبة أذكر أن الأستاذ توفيق أرسل إلى خطاباً يقول فيه :

... وجهتهم إلى أسس سؤال التمس على وهو : لماذا لم أوجه عنايتي إلى المسرح ؟ ولعلكم قصدتم أني لم أعن بإخراج رواياتي على المسارح ... وهذا حتى ... ذلك أن كتابة القصة التمثيلية نفسها والتأليف المسرحي في ذاته لمن القوالب الأدبية الفنية التي حرصت منذ نحو عشرين عاماً على العناية بها ... ولقد كتبت ونشرت - كما تعلمون - نحو خمس عشرة قصة تمثيلية أو قوامها الحوار الأدبي . وهي (ثم أورد حضرة أسماءها) ... ثم قال ... وكل هذه الروايات التمثيلية منشورة في كتب مستقلة وفي مجموعتي « مسرحيات توفيق الحكيم » في مجلدين . أما إذا كان قصدكم معرفة سبب عدم إخراج هذه القصص على المسارح حتى الآن (باستثناء أهل الكهف ومر المنتحرة) ؛ فإن الجدير بالإجابة هم القائلون بأمر مسارحنا ... وأنا عندما وجهت هذا السؤال إلى الأستاذ كنت أفهم عنه وكان يفهم عني في غير لبس ولا غناء . وإذا كان يريد أن يقول لي إنه عني بالتأليف للمسرح المصري فإني أخلفه مخالفة تامة ، مع أنني من أشد المعجبين بأدبه التمثيلي الذي يخرج في الغالب في شكل حوار لذيذ ممتع ، وهو مع هذه اللذة وذلك الإمتاع لم يخرج عن كونه قصصاً تمثيلية أنشأ للقراءة ولم ينشأ للمسرح . وعندما أكتب فصلاً آخر أو فصلاً أخرى عن « فن توفيق الحكيم » بوصف هذا الفن ظاهرة هامة من أوضاع ظواهر الأدب المصري الحديث ، فسأفيض في شرح ما أريد الآن إجماله من الناحية التمثيلية في أدب هذا الأستاذ العظيم ... هذا الأدب الذي شق

يسمع وكأنه لا يعلم شيئاً . ثم خضنا في المسرح وفي التمثيل ، وسأنته لماذا لا يؤلف للمسرح المصري روايات تمثيلية ، فسمعت منه الجواب الذي سمعته من خمسين أو من ستين شاعراً مصرياً وكاتباً مصرياً ... ليس عندنا مسرح ... ويجب ، إذا ألفنا ، أن يكون تأليفنا على نوعين ، فنوع للخاصة ، ونوع للعامة ... نوع للخاصة الذين يسمعون أن يفهموا القطع الخاصة الرفيعة وأن يتذوقوها ، ونوع للعامة الذين لا يسمعون أن يفهموا القطع الخاصة الرفيعة ولا أن يتذوقوها ... هكذا كان جواب الأستاذ الحكيم الذي لم تمض على معاهدة الصلح والسلام والمودة بيني وبينه غير دقائق ... ولقد سكنت على هذا الكلام لأنني أردت أن أجمل منه مادة لهذا الحديث ، لأنني لا أحب مطلقاً أن يتمدد السلام بيني وبين هذا الرجل الذي أحبه جداً وأعجب به جداً ، على حساب العامة . لأن تقسيم الجمهور المسرحي إلى خاصة وعامة هو أقتل سلاح نصوبه إلى صدر المسرح الذي نحلم بإنشائه ، وكل محاولة لإنشاء هذا المسرح إن لم تعتمد على العامة - وهذا رأيي وعلى تبعته - قبل أن تعتمد على الخاصة ، هي محاولة فاشلة ، بل هي محاولة فيها إثارة لمشكلة الطبقات ، بل هي محاولة للأزراء بسواد الشعب والانتفاص من ملكاته ... على أن الأدب الذي يكتب للخاصة هو في رأيي أيضاً أدب لا يمكن أن يمثل أمة ، بل هو أدب لا يمكن أن يمثل الخاصة نفسها ، لأنها خاصة تتألف من عناصر متباينة ، يتعاضل بعضها على بعض ، ويبالغ بعضها في بز البعض الآخر في المظاهر الكاذبة التي ربما أخفت وراءها قدراً عظيماً من العقلية المقيدة التي ترسفت في أغلال من الذهب ... وفي وسع الأستاذ توفيق الحكيم أن يقول : إنما أنا أقصد الخاصة المتعلمة ذات المواهب ، وأنا أرد عليه إذن بما قلته صراحاً على صفحات هذه المجلة وهو أن التعليم وحده لا يستطيع أن يصنع الخاصة الفنية لشعب ما من الشعوب ، فلقد كان العصر الذهبي للمسرح اليوناني في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد في زمن لم ترتفع فيه نسبة المتعلمين في أمتنا نفسها عن عشرة أو ستة عشر بالمائة ، وكذلك الحال في رومة والحال في إنجلترا (في القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر) حينما كان المسرح الإنجليزي في أوجه إذ ذاك ، وكان جل اعتماد المسارح اللندنية على الموارد التي تقدمت عليها من طبقات الشعب ، وبالأحرى من سواد

طريقه بسرعة فائقة في حياة مصر الأدبية الحديثة ، حتى احتل مكانة في جلالته وبهاء بين الطلبة من أدبائنا الأجداد
لقد وجهت سؤالاً إلى الأستاذ وهو يفهم عنى أحسن الفهم ولا داعي مطلقاً إلى القول بأن هذه القطع الرائعة الخمس عشرة كتبت للمسرح ، لأن الكتابة للمسرح شيء آخر غير الكتابة للقراءة المتفرقة ، أو القراءة للذة الفنية التي يتقنها توفيق الحكيم إتقاناً عجيباً لا نعرفه لغيره من كتابنا المصريين . وإنى حينما أقول إن الكتابة للمسرح شيء آخر غير الكتابة للقراءة المتفرقة ، لا أعنى أن ألقى درساً على أحد ، أستغفر الله . بل أعنى أنه يحسن ألا يغالط أحداً الآخر على هذا النحو ؛ فلقد سرى جداً ما ذكره الأستاذ توفيق في كتابه (زهرة العمر) الذي لم يتسع هذا الفصل للتحدث عنه ، من أنه أخذ يعنى بقراءة (برز شو)^(١) في لغته الأصلية ، أى الإنجليزية ، بدلاً من أن ينتظر ترجمته إلى اللغة الفرنسية التي كانت تيسر له قراءة هذا الرجل الذي يعتبر من غير شك (عاهل المسرح الحديث » في العالم قاطبة ... وسوف يسرنى أكثر أن يكون الأستاذ توفيق قد وازن بين (فن شو) المسرحي وما في قصصه هو من هذا الفن المسرحي . وسوف يسرنى أكثر وأكثراً أن يكون قد وازن بين (مُثُل شو) العليا ، ومُثُلُه هو ، تلك المثل التي تمنى بالفن من أجل الفن ، قبل أن تنغى بالفن من أجل الحياة . هذا . . . ولست أوصي الأستاذ الحكيم بدراسة إبسن أو بجورنسن من كتاب الدراما السكندنافيين ، أولئك الكتاب الذين تلمذ عليهم شو ، ووقفه الله إلى استكمال نقصهم . وذلك أن إبسن مثلاً كان يشخص علل المجتمع الإنساني وأدواءه ، ثم يكتب بذلك التشخيص . لم يكن يعنى قط بوصف العلاج الذي يكفل القضاء على تلك العلل ، أما شو ، الذي تشبه كثير من دراماته قصص الحكيم التمثيلية ، من حيث صلاحيتها جداً للقراءة دون صلاحيتها للمسرح ، فكان في تقدمه البارح وسخريته اللاذعة مشخفاً ومعالجاً في وقت مآ

أما لماذا أوصى الأستاذ الحكيم بعدم دراسة الكتاب السكندنافيين ومن إليهم من الكتاب الواقعيين ، فذلك لخشيتي على فنه الجليل الخلاب من أن يتأثر بهم ، ولأن الحكيم في ذاته رجل مشبع بمذهب (المودرنزم) الذي يفتن به افتتاناً لا حد له

ويجمل منه الأطار الذهبي الذي يملق لنا فيه ترجمته كلها ، وصورة الحقيقة التي فطره عليها خالقه الذي لا نحب أن نسميه الآن !
إسمع إليه يقول في كتابه « زهرة العمر » ص ٣٦ :

« ... انتهى رأيي إلى استحالة المضي في روايتي التي كتبت منها قليلاً وأنا في هذه البيئة الأوربية الماصفة . هذه البيئة الحديثة وما يسود فيها من جو (المودرنزم) يُفسد حسن فهمي للأشياء ويجول دون تعرفي حقيقة شخصيتي في الفن والأدب . أنا أحب المودرنزم ، وأخشى أن أقول لك إنى أقلد أساليبه على الرغم مني . وهذا بالذات ما يخيفني ويدعوني إلى التريث حتى تهدأ عاصفة هذا الفن الحديث ، ونعرف إلى أي حد يستطيع أن يثبت إلى جانب الأساليب التي اعترف بها التاريخ . لقد شاهدت في المسارح أخيراً قصصاً تمثيلية على طراز النزعة الحديثة ، مثل قصة au grand large ، كما شاهدت قصص ما قبل الحرب مثل ...

واطلعت على رأي النقاد في ذلك . أتدري ماذا فضل النقاد ؟ إنهم فضلو قصص (ما قبل موجة المودرنزم) ورأوها هي الخليفة بالبقاء واسمع إليه يقول أيضاً ص ٥٢ : « ... إن خيالي مع الأسف ليس من نوع الخيال الثمر الذي خدم الشعراء والكتاب ، بل هو من نوع الخيال المهلك الذي أضاع في وديانه السحيفة كثيراً من عاتري الحظ الذين حسبوا أنفسهم شعراء زمناً طويلاً وهم ليسوا بشعراء . ثم هنالك شيء آخر إخالك لم تلتفت إليه هو طبيعتي التي تميل إلى عدم الأخذ بما يأخذ به الناس جميعاً من أوضاع ، هرباً من الوقوع في الابتذال وشغفاً جنونياً بالتميز والإغراب . ففي لبسي لا أرئدي كما يرتدي الآخرون ، ولا أدخن لأن التدخين عادة عامة . وربما دخت لو اقطع الناس عن التدخين . لا أهدى إلى حبيبتي الأزهار الجميلة ولا المطور اللطيفة بل أهدى إليها بيفاء في قصص . ولا أكتب إليها مباشرة عن الحب ، بل أتبع طرقاً لن يتبعها عقلاء الناس . وتسألني بمد ذلك لماذا أحب (المودرنزم) ؟ أليس لأنه أقرب الفنون إلى الخروج على التبع المألوف ؟ لقد قالها أحد النقاد الحاقدين على هذا الفن الحديث : « إن أهل هذا الفن يأتون كل سنخيف مهجور بحجة حرية الابتداع والتفنن في الابتكار » . الواقع أني وجدت في هؤلاء ، لا مأواى ومعقلى ، بل وجدت كل طبيعتي وما تنطوي عليه من حق وجنون ، لقد وجدت على الأقل سنداً وأساساً لرغبتى المهرقة في الخروج على ما أسميه (المنطق العام) »

المضمر في مزاجك انطاس ، فكل الناس يحبون الكثرى
(ورحم الله حافظ إبراهيم!) ولكنك لهذا السبب تحب الحنظل ؛
وإذا عكسوا عكست ! وكل عباد الله يستحسنون في الشتاء بالاء
الدافئ ، ونحن نستنتج من المذهب الذي تأخذ نفسك به أنك
تستعجم ، بل تستنقع في الشتاء في حوض (بنو) مملوء بالثلج
والبرد ! لهذا ، لا لغيره ... سألناك لماذا لا تعنى بالتأليف
للمرح المصرى كما تفهم هذا المرح ، وكما يفهم المرح
برزد شو ، وكما يفهمه إيسن وبجورنسن والنقاد المحترمون الذين
لم تعجبهم الروايات التي ألقت على قواعد المودرنزم . والتي شهدتها
فأغرمت بها ، لأنها صادقت هوى في فؤادك
هل عرفت إذن ماذا تقصد يا أحب الأدباء التمثيليين إلى
نفسى ؟ وهل رأيت كيف أن خطابك لم ينطل علينا ؟
على أنني ضد السيد المحترم الوالد العزيز فيما ذهب إليه
بشأنك . ولو فطن لعلم أنك أذكي البشر
وأستودعك الله إلى الحديث المقبل .
دميني مشبه

واسمع إليه أيضاً يقول في ص ٩٧ : « ... إنك تعلم من
غير شك أن لي منطقاً خاصاً يشط في أحياناً عما اعتاده الناس ،
فإذا أنا في واد والناس في واد ، ينظرون إلى ويقولون : إما أنه
أبله وإما أنه فطن . لا أذكر في حياتي أن الناس حكموا على غير
الحكمين المتناقضين ، ففريق ومنه والذي يقول إنه أبله ، وفريق
ومنه والذي يقول إنه فطن ، ولم أسمع طول عمري حكماً وسطاً
بين هذا وذاك . »

وبعد أن نمتد للقاء من طول هذا الاقتباس الذي لم يكن
منه بد ولا عنه ممدى ، نشرع في الدفاع عن أديبنا المصرى
الكبير توفيق الحكيم ضد هذا الكاتب (المودرنست) توفيق
الحكيم ، الذي وصف توفيقنا هذا الوصف المؤلم في تلك العبارة
الصارمة المؤلة ... فالصورة وإن تكن حقاً في جملتها ، إلا أنها
مكتوبة في عبارات لا تحب أن يكتب بها توفيق الحكيم عن
توفيق الحكيم ... حقيقة إن توفيق الحكيم كاتب يحب
المودرنزم للدرجة أنه لا بدخن لا لشيء مقول ، ولكن لأن
الناس يدخنون ... فإذا امتنعوا عن التدخين أقبل هو عليه ،
ولو أنفق فيه جميع ثروته . وحقيقة إن هذا المودرنزم يحول بين
توفيق الحكيم وبين تعرف حقيقة شخصيته في الفن والأدب ،
بل هو يفسد حسن فهمه للأشياء . وحقيقة إن نقاد المرح
الفرنسي قد أجمعوا على تفضيل درامات ما قبل موجة المودرنزم ،
وأنهم رأوها أجدر من غيرها بالبقاء ... فهل يسمح لنا الأستاذ
توفيق الحكيم بأن نوضح له سؤالنا الذي وجهناه إليه فلم يفهمه
على وجهه ، أو أنه التبس عليه ، حتى أسرع فأرسل إلينا خطابه
تصحيحاً للوقف ، لأنه أيقن أننا شارعوت في الكتابة
عنه لا بحالة ؟ إذن فاعلم أيها الأديب الذي أصبح علماً في الأدب
المصرى الحديث أن جميع آثارك الخمسة عشر هي من مذهب
المودرنزم أو مذهب الشذوذ على المرف ، ومذهب (خالف تعرف !) ،
ثم هي مكتوبة لتقرأ^(١) وللمجرد الترف الذهني ... هي فن للفن .
ولولا أنني لم أعد أحب إزعاجك بتذكيرك بمساوئك للمرأة
— تلك العداوة المطلقة — لقلت لك إن أصل هذه العداوة ليس
حباً غائباً كما يزعم أسدفاؤك أو كما تزعم أنت عند ما لطمك
الحب على خدك الأيمن^(٢) ، بل إن أصلها هو هذا المودرنزم

(١) ليهذا الأستاذ توفيق فهذا هو رأيه أيضاً في كتابه ص ٢٨٩ ، ٢٩٠

(٢) زهرة السر ص ٢٥٥

وزارة الأوقاف تحول الكتاب إلى قصص

منزل
تحتى في القاهرة والاسكندرية

إن الفرصة التي تقدمها وزارة الأوقاف
بعرض الأراضي الفضاء المعدة للبناء للبيع
ستفتح الطريق إلى بناء ما لا يقل عن ١٠٠.٠٠٠
منزل في أجود أصقاع العاصمة

صفقات بأسعار معتدلة
وإجراءات سهلة تتم في بضعة أيام

وزارة الأوقاف
تؤدي رسالتها
في إتمام العمران

جميع البيانات من أعمام
المسجلة وساحبات أوراق
تطلب بدون مقابل من
مكتب تسيقات الوزارة